عودة الضمير الغائب

دخلتُ إلى بيتي ليلًا بعد نهار طويل في العمل. دخلتُ إلى غرفتي المظلمة أتحسّس طريقي بصعوبة فقد كان الظّلام دامسًا ولا يوجد أدنى بصيص من النّور، فلم تكن لهذه الغرفة إلّا نافذة واحدة. حاولت جاهدًا أن أرى حولي لكن دون جدوى. الشيء الوحيد الذي تمكنت من سماعه كان عبارة عن همهمات خفيّة تتطاير في فضاء الغرفة بصورة غير منتظمة. اقتربت أكثر وتعمقت إلى داخل الغرفة ليتحوّل الصّوت إلى صوت أشبه بفحيح الأفاعي التي أخذت تعلو وتعلو حتى تحوّلت إلى صوت شخيرٍ مزعج يشقّ ظلام الغرفة. وما هي إلّا لحظات حتى شعرتً نفسي متعثّرًا بجسمٍ غريبٍ سرعان ما علا صوته بصرخات الألم والوجع.

- احذر يا أخي، هل أنت أعمى؟! لقد أيقظتني من نومي العميق.

استغربت كثيرًا واختلط استغرابي بنوع من الخوف الخفيّ، فالصّوت معهود لي من الماضي البعيد حتى كدت أتذكر صاحبه.

- من أنت؟ من تكون ومن أين أتيت؟ كيف وصلت إلى هنا؟ من أذِن لكَ؟

- ألا تذكرني؟! ألا تعرف من أنا؟! على كل حال أنا لا أستغرب فقد طال سباتي ونومي وأنت لم تسمع منّي منذ زمن طويل فقد جعلتني أنام لسنوات حتى ظننت نفسي أحد أصحاب الكهف.

يا للهول!!! بدأت رويدًا رويدًا أتذكّر الصوت. هل من المعقول أنّه قد استغرق كل هذه الفترة بالنّوم؟! ألم يصحو رغم كل الضّجة والفوضى حولنا؟! لم أكن متأكدًا: هل حقًا هذا أنت؟!

أتتني الإجابة من خلال الظّلام الحالك: "نعم هذا أنا، لقد أطلت الغياب يا صديقي، نعم أنا صوت ضميرك الذي طال غيابه لقد نسيتني واستغنيت عني، فلم أعد أوقظك وأنبّهك على ما يحدث حولك. على ما يبدو أنني أصبحت في عداد الماضي فلا حاجة لي في هذه الأيام.

انتابني شعور غريب لسماع صوته، وأحسست أنّ عتابه صادقٌ، يغوص في أعماقي حتى يكاد يلمس أدق شراييني الرّفيعة.

-" أنا لم أنساك يا صديقي لكن عليك أن تعذرني فالظّروف قد تغيّرت في أيامنا هذه، تغيّرت لدرجة أننا استغنينا عنك وعن أمثالك".

- "هل تريد أن تقنعني أن النّاس قد توقّفوا عن الحاجة الى خدماتنا؟!

ماذا فعل النّاس بضمائرهم؟ لقد كانت الضّمائر هي القلب النابض للنّاس في الماضي، ماذا فعلتم بها؟ أيّ مصيبة حدثت؟!

-"والله يا صديقي لقد قام النّاس بالتّخلّي عنها، بعضهم قام بتخديرها أو تخزينها والبعض قام بتشغيلها بوظيفة جزئيّة مع الكثير من القيود".

-" لكن ألستم الذين كنتم تنادون وتتغنون بنا نحن الضمائر، ألستم من دعوتم إلى صحوتنا؟ ألم يطالبكم بذلك العرف والتّقاليد؟ أنا بالفعل مصدوم".

-ماذا بالنّسبة للعلاقات الاجتماعيّة بين الناس؟

-العلاقات الاجتماعيّة ممتازة بشكل كبير، فالنّاس يتبادلون الزّيارات بينهم، ويشاركون بعضهم البعض المناسبات كافّة. والعلاقات الأسريّة مترابطة ووثيقة. وعادت الأسرة إلى الالتمام حول الأب والأم وتكاتفت العائلة من جديد ونُبذت جميع الخلافات. وعادت الأمور الى نصابها، فالأخ يحبّ أخاه وأخته، حتى أنّهم أصبحوا لا يحرمون أخواتهم من الميراث وأصبحت صلة الرّحم شعارهم الأول فهم دعم وسند لأخواتهم.

-كل الاحترام والتقدير.. ماذا بالنّسبة للتّكافل الاجتماعي والعلاقات داخل المجتمع؟

-أوه، هذا ما أصبحنا نمتاز به، هل سمعت عن الأوتوبيا أو المدينة الفاضلة؟ هكذا أصبحنا، فالجار يساعد جاره، والغني يساعد الفقير، لدرجة أنّ الفقراء اختفوا من المجتمع وأصبحوا عملة نادرة، لدرجة اننا لا نجد أحدًا نعطيه زكاتنا وصدقاتنا. فالنّاس ينامون وهم شباعٌ، فلا جياع ولا معوزين حتى أنّ ظاهرة الشِّحدة اختفت من مجتمعنا، فأغلقت البنوك أبوابها فلا قروض ولا فوائد.

-أُف والله أنّك تفاجئني.

-اطمئن يا صديقي ونم قرير العين فنحن بخير، كل الخير لدرجة اننا أصبحنا قدوةً يُحتذى بها في كل بقاع العالم.

-ماذا بالنّسبة للمرأة وحقوقها؟

-يا سلام!! هذا من أروع ما حدث لدينا من تطورات، فالمرأة قد حصلت على المساواة مع الرجل بشكل تام، فهي تعمل وتشغل مناصب عُليا، وزوجها يشاطرها أعمال البيت وتربية الأطفال، كما وحصلت على حقوقها بالميراث والنفقة وتحرّرت من القيود التّقليديّة فهي تخرج مع صديقاتها متى شاءت وتقود سيارتها حيثما تشاء.

-رائع جدًا، ماذا بالنّسبة للدّين؟

- الدّين منتشر بين النّاس بكثرة، فهم يرتادون دور العبادة بشكل دائم. ويطبّقون تعاليم الدّين بحذافيرها. تبحر النّاس بعلوم الدّين والشّريعة حتى أننا استغنينا عن رجال الدّين، فلا شيوخ ولا أئمة ولا وعّاظ. واختفت تجارة الدّين نهائيًّا فكل شيء مجاني. هل تصدّق أنّ فريضة الحج أصبحت مجانيّة؟ فالحاج لا يدفع شيئًا فكل المصاريف على حساب ونفقة الدولة وكما ذكرت سابقًا، لا فقراء ولا محتاجين. بيت المال امتلأ وعاد كما عهدناه زمن

الخليفة عمر بن عبد العزيز، فالشّباب يزوّجون على حساب بيت المال وتبنى لهم البيوت والمساكن على نفقة المسلمين. أصبح التّعليم مجانياً وحصل الشّباب على الدّرجات العُليا ولحقنا بالشّعوب والأمم المتطوّرة لدرجة أنّ اسبانيا اقترحت علينا إعادة الأندلس ليحظى أهلها بالعزّ والرخاء.

-ماذا بالنسبة للسياسة؟ هل ما زالت كما كانت؟

-السياسة؟ ليس لدينا شيء كهذا. فلا سياسة عندنا ولا سياسيين، ولا احزاب ولا قوائم. الحكم للشعب فقط. فلا فساد ولا فاسدين، لا محسوبية ولا وساطات فلا تعرف ابن الوزير من ابن العامل البسيط. الشفافية عالية جدًا والأسعار رخيصة والخدمات الاجتماعية منتشرة بدرجة وحرفيّة عالية.

-الحمد لله على نعمته لقد هدأت من روعي يا صديقي فقد كنت قلقًا جدًا عليك، قلقٌ أقضّ مضجعي في سنة من سنوات نومي لكنني الآن قد اطمأنت عليك.

-لا تقلق يا صديقي عد إلى نومك وسباتك، عد إلى راحتك وغيابك عنّا فنحن بخير ما دمت غائبًا ونائمًا.

وكيف ننهي مدونتنا بدون طرفة؟

يُحكى انّ الكذب والحقيقة تقابلا في يوم من الايام..

فقال الكذب للحقيقة:

_هذا اليوم جميل جدا!

نظرت الحقيقة حولها في شك ورفعت عينيها للسماء فوجدت ان اليوم جميل حقاً والجو جميل فقررت ان تقضي اليوم تتمشى مع الكذب..

ثم قال الكذب للحقيقة:

– الماء في البئر جميل جدًا، تعالي لننزل الى الماء

نظرت الحقيقة الى الكذب والشكّ يعتريها للمرة الثانية، ولمست الماء، فوجدته جميلاً حقا..

فتجردت الحقيقة والكذب من ملابسهما، ونزلا الى البئر.

وفجأة، وبدون سابق إنذار، خرج الكذب من البئر، ولبس مسرعًا ملابس الحقيقة وجرى هاربًا

خرجت الحقيقة من البئر عارية وغاضبة تجري وراء الكذب تود أن تلحق به..

ولما رآها الناس عارية غضبوا منها وأداروا وجوههم عن الحقيقة المسكينة، فرجعت للبئر اختبأت به ولم تخرج منه مره ثانيه من شدة خجلها..

ومن وقتها والكذب يلف العالم، يرتدى ثوب الحقيقة والعالم يتقبله، وفي نفس الوقت يرفضون أن يروا الحقيقة عارية!!

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة